

مذهب الملكات العقلية

للاستاذ محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس

بمعهد التربية وكلية أصول الدين

— ٣ —

بيننا في مقالنا السابق شيئاً عن نشأة مذهب الملكات العقلية ، واستخدام العلماء الأقدمين له كوسيلة لتقسيم العمليات العقلية وتبويبها ، ثم لتعليل القوي العقلية وشرح عملياتها ، وكيف تطورت فكرة الفلاسفة عن الملكات من اعتبارها مجرد قابلية العقل للقيام بعمل معين الى القوي الفعالة البسيطة التي لا يمكن تحليلها الى عناصر أبسط منها ، وكيف اتسعوا في بحثها فلم يتركوا ظاهرة عقلية صعب عليهم تفسيرها وإدراك عملها وتحديد وظيفتها إلا وخلقوا لها ملكة جديدة ، حتى صار عدد الملكات أربعين أو يزيد . وبيننا كذلك تفتنهم في تحديد مراكر الملكات في الجهاز العصبي وسائر أعضاء البدن ، وكيف استغل (جال، واسبورزهايم، والاخوان مولر) هذا التقسيم وجعلوه أساساً لبناء علمي فراسة الرأس والوجه على أساس جديد . وستبين الآن كيف تشكك العلماء في هذا المذهب حتى توصلوا أخيراً عن طريق علم النفس التجريبي الى هدمه والحكم بطلانه .

٦ — أوجه بطلان المذهب .

حمل الغزالي زعيم فلاسفة الاسلام حملة شعواء على مزاعم أفلاطون وأرسطو واتباعها في طبيعة النفس وخواصها . وبقى على أثره الكثير من علماء الاخلاق ، فأنكروا النفس الشهوانية التي تتطلب إشباع الشهوات الحسية وحاجات البدن الطبيعية ، ولم يسلّموا بغير النفس العاقلة المفكرة . وفي هذا يقول ابن مسكويه : « إن تشوق النفس الى ما ليس من طباع البدن وحرصها على معرفة حقائق الأمور الالهية وميلها الى الأمور التي هي أفضل من الأمور الجسمية وإثارة لها وانصرافها عن الأمور واللذات الجسمية — يدلنا دلالة واضحة على أنها جوهر أعلى وأكرم جداً من الأمور الجسمية — فأذن كانت أفعال النفس إذا انصرفت الى ذاتها فتركت الحواس مخالفة لأفعال البدن ومضادة لها في محاولاتها وإيراداتها فلا محالة أن

جوهرها مفارق لجوهر البدن ومخالف له في طبيعته» (١) ويؤكد « أن شوقها الى افعالها الخاصة بها أي العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به هو من فضيلتها » (٢) ويزهها عن الرذائل التي هي أضدادها أي الشهوات الرديئة الجسدية والنزوات الفاحشة البهيمية وكذلك يقول ردا على استقلال النفوس الثلاث بعضها عن بعض وتنازعها بالصورة المتمثلة في أقوال المتأخرين. إن « هذه الأَنْفُس الثلاث إذا اتصلت صارت شيئاً واحداً، ولكنها باقية التغاير، و باقية القوى فتصير في بعض الاحوال شيئاً واحداً وفي بعض الأحوال أشياء مختلفة — ولذلك يقول قوم إن النفس واحدة ولها قوى كثيرة، وقال آخرون : بل هي واحدة بالذات كثيرة بالعرض وبالموضوع (٣) ، وتجد الكثير من هذا في أقوال الغزالي التي يكفر بها أرسطاطليس ومن أخذ عنه من فلاسفة الاسلام كابن سينا والفارابي .

أما في أوروبا فقد حاول العلماء هدمه عن طريق الفلسفة قبل أن يهدمه علم النفس الحديث . ففي ألمانيا بدأ الفيلسوف « كانت » حملة المعارضة بإرجاع العمليات العقلية كلها الى نوع واحد وهو الإدراك أو التمثيل Vorstellung الذي جعله أساساً للوجدان والارادة (٤) وأيده في هذا (فورلاندر، وشلايماخر، وبنيكاء، ودر وبيش (٥) وغيرهم) ممن رفضوا أن « يتصورو العقل مسرحاً لحرب داخلية بين الملكات وبعضها » التي يكون مثلها على حد قول « فورلاندر » كالامبراطورية الجرمانية الرومانية يغتصب فيها الأمراء « الملكات » ساططة الامبراطور « العقل » أو أن تكون الحياة العقلية كما يقول « شلايماخر » مأساة أظهر ما فيها مؤامرات الشعب ودسائس الحكام » (٦)

أما في فرنسا فقد حوره (ديكارت) تحويراً بليغاً أخرجه عن معناه الاصلى من الناحية الموضوعية الى الناحية الفاعلية النفسانية بإرجاع كل الملكات وسائر الأعمال العقلية الى الفكر أو الشعور ، وقد فصل هذه النقطة تفصيلاً جلياً بقوله :

« أنا أقصد بالفكر كل ما يحل فينا - أي في عقولنا - فنشعر به من تلقاء أنفسنا مباشرة وبناء على هذا تكون الأرادة والفهم والتصور وكذلك الإدراك الحسى والأحاساس كلها تفكير - أي ليس لها ملكات خاصة - فالعقل وحده هو الذي يدرك ويعي » (٧)

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : الطبعة الحسينية ص ٦٥ (٢) التهذيب ص ٨

(٣) التهذيب ص ٤٣ (٤) Sully: Mind. P. 50 (٥) Vorlander, Schleiermacher

Beneke, Drobisch. (٦) Mahier: Psych. P. 39 راجع

(٧) Descartes. Principles of Philosophy, Part 1, P. 9

وقد لخص هذه النقطة بجملة المأثورة : « أنا أفكر فإذا أنا موجود - Cogito ergo sum وهو بهذا يرد كل مظاهر الكائن الحى التى تشعر بوجوده وكيونه : « التى كانت تسب قبله الى النفوس المتعددة أو القوى العقلية الى قوة واحدة وهى التفكير أو الإدراك على اعتبار أن الإدراك يشمل كل ما يحدث فى نفوسنا فنشعر به » (١) ويزيد هذه النقطة توضيحاً بقوله : « إن حقيقة وجودى أنا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحقيقة حدوث الفعل الشعورى المحدود ، وليس وجودى مستمداً من الشعور ذاته - كما ظن معارضوه - وإن كان لا يتمثل ولا يتحقق إلا فى وجود الادراك . فكلاهما عاملان لا انفصالان فى كل موقف ، أو فعل محدود يحدث فى فترة محدودة من الزمن » (٢) ونشير هنا إلى أنه لم يقصد بالتفكير الادراك المجرد ، وإنما الإدراك الحسى المميز ولذلك قال بالتخصيص Cogito ergo sum ولم يقل بالتعميم entitas أو Cogitatio ergo ens

أما قوة القوى أو ملكة الملكات التى تقوم بعملية التفكير المتضمن لسائر العمليات العقلية فهى فى نظره العقل وحده . فيقول :

« وأقول إن الجوهر الذى يقيم فيه التفكير مباشرة هو العقل Mens, Esprit ولم أقل Anima لأن هذه يقصد بها عادة شئ متجسم (٣) ويلخص (ديلافورس) الموقف بقوله : « إن التفكير هو الادراك الحسى أو الشعور أو العلم الباطنى الذى يشعر به كل منا مباشرة بنفسه عند ما يدرك ما يفعله وما يمر فيه » (٤) والخلاصة أن (ديكارت) وأتباعه ردوا كافة الأعمال العقلية الى العقل Mens sive animus أو النفس المفكرة غير المستمدة من قوى البدن والتى لا تسكن فى البدن كما يسكن القبطان السفينة وإن كانت تندمج فيه لتجس وتتشعر أى يكون لها احساسات ونزعات وشهوات يتكون من مجموعها الرجل الحقيقى (٥) وعلى أثر (ديكارت) هب لمعارضة المذهب فى فرنسا (ريبو) و (تين) و (جماعة الوضعيين) وكال لهم (هارتلي) وأتباعه من أنصار مدرسة (التداعى) ضربة قاسية . وفى أوائل هذا القرن بدأ (براون) الحملة من جديد وتبعه (بيلى وصلى) (٦)

(١) (ديكارت) تعاريف ص ٨٥ (1875) Resp. ad Sec. Obj. P.85

(٢) Méditations . Intr. P.22, Part 2, P.501

(٣) راجع رده على الاعتراض الثانى Garnier

Tome 2, P. 78 - 84

(٤) De la Forge, De l'Esprit, ch. III P. 14.

(٥) راجع الفصل الخامس من Méditations

(٦) Ribot, Taine, Positivists, Hartley, Associationists, Brown, Bailey, Sully

وكذلك قضى علماء النفس والفسيولوجيا حتى القرن الثامن عشر على نظريات (جال) و (اسبورزهايم) في علم الفريولوجيا وعلم فاسة الوجه (١) وكذلك لم يخل علم النفس في القرن السابع عشر ، من هجمات أنصار هذا المذهب أمثال : « بلاتن » و « بنديكتوس » و « هوفمان » و « بوكين » (٢) .

أما علماء النفس التحليلي ، فقد عارضوا المذهب من النواحي الآتية :
(١) وحدة العقل : العقل وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها ، وعملياته متصلة متجانسة . تربطها روابط ثابتة ، تجعلها كحلقات السلسلة الواحدة ومجرى الشعور ، وأن تكون من وحداتها ما يمكن تمييزها بعضها عن بعض ، إلا أنه قد يزيد عن مجرد مجموع الوحدات التي يتكون منها . وما هذه المظاهر النفسية المتعددة ، والعمليات العقلية المتباينة التي نسبها الأقدمون إلى ملكات مسؤولة عن إحداثها وخلقها ، بسوى صور لشيء واحد ، وهو العقل . (٣)
وبعبارة أخرى ليست الحياة العقلية بمجموع حالات مختلفة ، أو عمليات مميزة ، وإنما هي وحدة كاملة تتضمن جزئيات مرتبطة ، تمثل في العمليات العقلية التي يقوم بها العقل في آن واحد ، أو في أدوار متعاقبة (٤) كذرات الجزئية الكيميائية للعنصر الواحد .

(٢) نقص التحليل : لم يعن أنصار المذهب بتحليل الملكات المزعومة إلى أبسط أصولها ، أو دراسة الحالات المختلفة التي تمثل فيها ، فقد اعتبروا ملكة واحدة ما هو في الواقع مجموع أعمال عقلية ، كل منها يصح أن يكون في ذاته ملكة مستقلة فقد يصح أن يكون هناك فارق بين تذكر الإنسان للوجه ، وتذكر أسماء أصحاب هذه الوجوه .

(٣) خطأ التأمل الباطني : واعتمدوا كذلك كل الاعتماد على التأمل الباطني ، وفاتهم عملية الإدراك ، أو الإرادة ، أو حالة الانفعال التي تبدو كاملة أثناء اللحظة التي يقومون فيها بالتأمل الباطني قد تكون في ذاتها نتيجة لسلسلة تغيرات طويلة ، كل حلقة من حلقاتها مهدت الطريق لما بعدها من الحلقات ، فحكمهم على العملية العقلية عامة إنما هو في الواقع حكم على جزء واحد ، أو حلقة خاصة من هذه العملية ، أو نوع خاص ، قد لا ينطبق على كل ما سواه من الحالات . فالحكم على شخص واحد بأنه جبار الذاكرة ، لمجرد ملاحظة أنه علم بكل أطراف الموضوع الذي تعالجه ، وبكل مراجعه والتسرع في استنتاج أن هناك شيئاً عاماً أو قوة موجودة بالفعل اسمها ملكة الذاكرة - حكم فاسد لا يمكن تطبيقه على كل الناس .

وهب علماء النفس التجريبي لمناقشة هذا المذهب من الوجهة العملية وتمحيصه بطرق عملية

(١) راجع (صلى) العقل ص ٥٠ (٢) Platen, Benedictus, Hoffmann, Rankin

(٣) ماهر . علم النفس ص ٣٧ (٤) علم النفس التحليلي ص ١

سندشرحها في مقالنا المقبل ، وكلهم من العلماء الأعلام أمثال : « ثورنديك » و « كاري » و « سلايت » و « ونش » (١) . فأثبتت نتائجهم إثباتاً قاطعاً لا شك فيه ، تؤيده البراهين العلمية والملاحظات ، أن ليس هناك شيء يصح أن يطلق عليه لفظة ملكة بالمعنى الفلسفي القديم . وتتلخص نتائجهم فيما يأتي : —

(١) ليست الملكة في ذاتها حقيقة كائنة بالفعل ، أو قوة تسبب حالة عقلية خاصة ، أو تحدث عملاً خاصاً ، ولا هي مجموعة حالات إدراكية أو عقلية من نوع واحد تشابه تمام المشابهة حتى يصح أن يطلق عليها اسم ملكة عامة .

(٢) نعرف كذلك بالتجارب الشخصية والعلمية أنه ليس هناك ملكة واحدة تسمى ملكة الذاكرة يصح أن تكون قوية أو ضعيفة على وجه العموم في فرد واحد — فقد يسهل على المرء تعرف صور بعض الأشخاص أو تذكر ملاحظاتهم في حين أنه يتعذر عليه في نفس اللحظة أن يتذكر أسماء هؤلاء الأشخاص وكذلك قد يسهل على الفرد تذكر تواريخ الحروب والحوادث الهامة في التاريخ بقدر ما يصعب عليه تذكر أرقام التليفونات أو الاحصائيات العلمية ، في حين أن الأساس في الحالتين واحد وهو الأرقام ، وقد أثبتت تجاربي التي قمت بها في إنجلترا أنه قد يسهل على الإنسان تذكر الإلهان الحمراء التي تمثل مجموعة اللون الأحمر بقدر ما يصعب عليه تذكر الألوان الزرقاء ، مع أن الأساس في الحالتين واحد وهو اللون ، وكذلك وجدت أن لا علاقة مطلقاً بين تذكر الأشكال المنتظمة والأشكال غير المنتظمة بحيث يصح أن يكون المرء قوياً جداً في تذكر إحدى المجموعتين وضعيف جداً في تذكر المجموعة الثانية — على أن الأساس أيضاً واحد في الحالتين وهو الخطوط (٢)

(٣) تمرين الملكة الواحدة في ناحية معينة عن طريق التكرار قد يؤدي إلى تحسين هذه الملكة في هذه الناحية فقط .

ولكنه لن يحدث أي تغيير جوهري في النواحي الأخرى لهذه الملكة أو في أية ملكة أخرى ترتبط بها في أية ناحية من النواحي ، فتقوية الاستنتاج في عمليات الحساب لا تقوى الاستنتاج في أية مادة أخرى ، ولا حتى في علم الجبر ، وقد وجدت كذلك أن تقوية ذاكرة الأشكال ذات الخطوط المستقيمة لا يصحبه أي تغيير في تقوية ذاكرة الأشكال ذات الخطوط المنحنية .

(١) Thorndike, Cary, Sleight, Winch. (٢) رسالة للكاين بالانجليزية عن :

طبيعة ذاكرة الألوان والأشكال Specific Nature of Colour and Form Memoris

وأدت نتائج الباحثين في بعض الملكات الرئيسية الى نتائج هامة يحسن أن نشير اليها في شيء من الاجاز لتسمة البحث وان كنا سنتناولها بالاسهاب في مقالنا التالي :

الذاكرة :-

١ - من الثابت أن هناك أنواعاً رئيسية للذاكرة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال ولا تربطها ببعضها أية روابط . فيصح أن يكون الفرد قوياً جداً في أحدها أو بعضها وضعيفاً في البعض الآخر (١) كذلك تؤيد التجارب أن هناك ذاكرات رئيسية كل منها تستند الى حاسة خاصة كالذاكرات السمعية والبصرية الى أخرى ، وكل منها تنقسم بدورها الى أنواع ثانوية يربطها عامل واحد وهو الصنف العام للنوع الرئيسي الذي تنفرع منه ، وقد نصل بزيادة التحليل الى أنواع أبسط من هذه وهكذا حتي نصل الى عناصر أولية لا عدد لها تكون كالجواهر الفردة ويصبح حقيقة ما اعتبره (استاوت) فرضاً « لما كانت الذاكرة في الواقع تتمثل في قدرة العقل على استرجاع الحوادث الماضية وتذكرها كما حدثت وجب أن يكون لكل تجربة ماضية ذاكرة خاصة » (٢)

وعلى هذا تنقسم الذاكرة أولاً الى اقسام رئيسية تمثل الحواس التي يستقبل العقل عن طريقها المؤثرات الخارجية - بصرية وسمعية وذوقية الخ- وتنقسم البصرية - بدورها الى أقسام ثانوية للأشكال والألوان والوجوه والحروف الخ . وقد وجد المؤلف أن لكل لون من ألوان الطيف الشمسي ومجموعته الخاصة ذاكرة مستقلة بذاتها . وكذلك تختلف قوة تذكر الاشكال المنتظمة ذات المعنى عن الاشكال غير المنتظمة التي لا معنى لها - (٣)

٢- فلاصحة إذاً للقول بأن هناك ملكة عامة تقوم بكل عمليات التذكر.

٣- والتمرين على حفظ شيء معين قد يساعد على تسهيل حفظ هذا النوع بذاته . ولكنه

لا يؤدي إلى أي تحسين في باقي الأنواع أو بعضها مالم يكن هناك عامل مشترك بين النوعين (٤)
٤- علي أنه من المرجح أن للتمرين نهاية طبيعية لا يحصل بعدها أي تحسين مهيأ بدلاً من الجهد في الحفظ والتمرين .

(١) راجع مقال الكاتب عن النسيان في مقتطف فبراير سنة ١٩٣٠

(٢) (استاوت) : دليل علم النفس الكتاب الرابع الفصل الثالث

Stout .Manual , B - k , 4 . C 3

(٣) راجع مقدمة رساله المؤلف

(٤) راجع مقال « سلايت » في مجلة علم النفس البريطانية الجلد الرابع S ight

الانتباه :

ليس هناك مصدر واحد أو مؤثر أو سبب خاص ينتج الحالة العقلية التي نطلق عليها كلمة الانتباه (١) وليس هناك مقياس واحد يصح ان نقيس به عمليات الانتباه المعقدة وانواعه المختلفة (٢) لأنه يترتب على طبيعة المؤثر الموضوعية والشوق والرغبة الشخصية في تتبع حالة معينة — والشوق في ذاته مركب من حالات مختلفة متعددة ليس بينها أدنى ارتباط . (٣) فمن العبث القول بأن هناك ملكة خاصة تدفع العقل الى الانتباه لكل شيء (٤) أو أنها قابلة للتمرين .

الخيال

وكذلك أثبت التجارب أن الخيال ليس بملكة عامة يمكن تدريبها وتميئتها عن طريق الدرس والاطلاع . لأن مجرد زيادة المعرفة بأنواع متعددة من العلاقات الفكرية لا تهيب العقل لاكثر من العمل بمقتضى هذه الارتباطات . ولكنها لا تخلق قوة الابتكار والتشابه والاستعارات ، والمخفوقات التي يملأ بها طلاب الأدب عقولهم لا تفيدهم في أكثر من أن تجعلهم مقلدين لا أكثر ولا أقل . فحفظ ضروب الشعر وألوانه المختلفة لمن لا يدرك معنى الشعر إدراكا ساميا ويتذوق ما فيه من جمال لا يخلق منه إلا شويعراً بسيطاً يحاكي مقامات القدماء كما تحاكي البغاء لغة الانسان .

الملاحظة

تختلف وجهات نظر الناس عند ملاحظتهم لشيء واحد . فالجيولوجي يرى في الحجر الواحد ما ينبؤه عن عمره وعمر طبقته والعصر الذي تكون فيه . أما الكيميائي فيهتم بملاحظة تركيبه الطبيعي والعناصر الداخلة فيه . أما عالم المعادن فيرى فيه عرق الذهب ان كان من الكوارتز أو الاسبستوس إن كان من السربنتين الأزرق . وعالم الجغرافيا يرى فيه تأثير المطر والرياح وسائر عمليات التحات وهو حجر واحد لم يتغير . ولذلك تختلف وجهات نظر الناس في ملاحظة الشيء الواحد باختلاف رغباتهم وميولهم ودراساتهم وسابق معرفتهم وعلمهم به . والواقع ان الاستمرار على ملاحظة شيء معين او دراسته من ناحية خاصة قد يصرف الذهن عن ملاحظة الأشياء الأخرى أو دراستها من نواحيها المختلفة فليست هناك إذن ملكة للملاحظة حتى يمكن تدريبها .

(١) Watt, Economy and Training of Memory P. 37

(٢) Rusk, Exper. Education P.41

(٣) Arnold. Attention and Interest P. 42

(٤) Baldwin . Psy. P. 444

الاستدلال والحكم

قد ثبت أخيراً أن ليس هناك أدنى ارتباط بين الاستدلال المنطقي في القضايا الرياضية والاستدلال في أي نوع آخر من القضايا ، فالمحامي الفذ الذي يستخلص من قضايا الأجرام أدلة وأساليب لا تخطر على بال قد يعجز عن تلمس البرهان في مسألة حسابية بسيطة أو نظرية هندسية . وإن كل نوع من أنواع الحكم يتطلب معرفة خاصة وطريقة ممتازة للتفكير . فالقول بأن هناك ملكة للاستدلال والاستنتاج والحكم ، وأن دراسة الرياضيات كما يقول أفلاطون وارشميدس وفثاغورث أو دراسة اللغة اللاتينية كما كان يقول علماء التربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هي خير طريقة لتدريب ملكة الاستدلال والحكم وتغذيتها هو قول باطل .

الإرادة :

تترتب إرادة الفرد على عقليته ومبادئه وعواطفه ونزعاته وبالجملة على شخصيته . ولما كانت هذه العناصر مختلفة في الأشخاص المتعددين وغير متساوية في الشخص الواحد فلبست هناك إذاً قوة أو ملكة عامة يصبح أن تسمى إرادة . والشخص الذي يقال عنه قوي الإرادة هو في الواقع يخضع لأشياء معينة أو يقوم بأعمال خاصة توافق نزاعته وميوله وتنبه السرور واللذة على حساب الأمور الأخرى التي لا يميل إليها بطبيعته ، فيستعجنها في الأشخاص الآخرين كثيراً ما ترمى إلى العناد وصلابة الرأي وعدم الميل للاقناع بالحجة الدامغة فهو في الحق ضعيف في الناحية التي يقول أو يريد أن يظهر أنه قوى فيها .

محمد مظهر سعيد

علم الحياة

(بقية المنشور على الصفحة رقم ٩٦٢)

كيف يمكن للإنسان أن يصلح نفسه وغيره ؟ أليس بتلافي غلطات الغير واجتناب الوقوع في زلات الآخرين ؟ ! ومافائدة التواريخ التي نقرأها ؟ أهى مجرد التسلية وقطع الوقت ؟ لا ، إنها صورة حية ندرس بواسطتها أحوال الأمم الغابرة وماحدث للشعوب السالفة من خفوض ورفعة ، فتقف على مواضع الضعف منها فتتجنبها ، وعلى مواضع القوة فنأخذ بأسبابها ومسبباتها .

محمد سعيد نخت ولي